

آل علم للعلم ، أم العلم للوطن

بوسيلة دراسة التاريخ؟

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

— ١ —

رغب إلى بعض الشباب أن أدلي برأي في موضوع «هل العلم للعلم أم العلم للوطن — بوسيلة دراسة التاريخ» وهو الذي استفتت المفكرين فيه الرابطة العربية ، فكتبت هذا المقال مترخياً فيه بيان الرأي على وجه عام ، غير متصد لمناقشة رأي خاص . وقد رأيت اثره بالرسالة الصديقة ليتسع مدى المناقشة في هذه المسألة بتوسع المجال

أبو خلدون

أنا لا أعترض على من يقول إن «العلم للعلم» ؛ واسلم بأن «الابحاث العلمية» يجب أن تكون غايتها «معرفة الحقيقة» ، «معرفة مجردة عن كل اعتبارات النفعية» .

غير أنني أقول في الوقت نفسه إن العلم شيء والتعليم شيء آخر ، فاصح في «العلم» قد لا يصح في «التعليم» . فعند ما نقول «العلم للعلم» ، لا يتحم علينا — منطقياً — أن نقول في الوقت نفسه «التعليم للتعليم» . وعندما نسلم بأن «العلم لذاته لا لشيء غيره» ، لا يلزمنا التسليم في الوقت نفسه بأن «التعليم أيضاً لذاته» ، لا لشيء غيره» .

فإن مبدأ «العلم للعلم» لا يمنعنا من القول بأن «التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات» ، بل هو من الوسائل التي تستخدم للوصول إلى بعض الغايات .

إن هذه الغايات لا تكون «مادية ونفعية» في كل الأحيان ، بل تكون «معنوية وتربوية» في معظم الأحوال : فقد يقصد من التعليم «إعطاء بعض المعلومات المفيدة للحياة» ، في بعض الأحوال ؛ غير أنه يقصد منه — في كثير من الأحيان — «الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربوية» ، كالتعود على البحث والملاحظة ، والترغيب في الدرس والمطالعة ، أو تنمية الميول الفنية واستثارة العواطف النفسية . . . وأما التعليم الذي يتجرد عن مثل هذه الأهداف والغايات ، فإنه يكون غافلاً لآس التربية الصحيحة مخالفة كلية .

هذا من ناحية العلماء أنفسهم وكثرتهم ، وهناك ناحية أخرى وهي ناحية الناس الذين يحكمون بالنبوغ ، فلا بد للنبوغ من نابغ وحاكم بالنبوغ ، كما لا بد للجميل من ناظر ومنظور . فهو لا الناس أصبحوا — على العموم — مثقفين ثقافة عامة خيراً عما كانوا عليه في العصور الماضية . اتسعت معارفهم ودقت أنظارهم ، وكان لهم أيضاً شبه تخصص ، فمنهم من يميل إلى الأدب ، ومنهم من يميل إلى العلم ، ومنهم من يميل إلى الفن ، وأصبح الفرق بينهم وبين العلماء المتخصصين أقل بكثير من الفرق الذي كان بين العامة والعلماء في العصور الماضية ؛ وكذلك شأنهم في السياسة ، بل شأنهم في السياسة خير من شأنهم في العلم ، كل يعرف حقوقه وواجباته السياسية ، ويستطيع أن يزن قاداته ووزناً صحيحاً إلى حد ما .

كل هذا أنتج نتيجتين بعيدتي الأثر ، أولاهما أنهم أصبحوا يتطلبون من النابغة ما يشبه المستحيل حتى يعد في نظرهم نابغة ، وقد كان ذلك فيما مضى سهلاً يسيراً ، فمن عاش في الظلماء بهيره نور القنديل ، ومن عاش في ضوء الكهرباء لا يبهيره ضوء الشمس ؛ والثانية أن الناس أصبحوا متسائلين مدققين باحثين لا يستطيع السياسي التقدير أن يتلاعب بهم وأن يجعلهم آلة صماء كما كانوا من قبل . من أجل هذا لا نرى كبار الساسة اليوم يستطيعون أن يخضعوا الناس لأمرهم كما فعل نابليون ويوليوس قيصر وجنكيز خان وأمثالهم ، وعدم الخضوع وكثرة البحث والسؤال والتدقيق يقلل من مجد الساسة ، ولا يرفعهم إلى درجة الآلهة وأنصاف الآلهة كما كان الشأن في سالف الزمان ؛ ومثل هذا يقال في كل علم وكل فن

فعصرنا الحاضر ، طابعه طابع المؤلف والمعتاد لاطابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

إن كان هذا — يا أخي — هو الذي أرثت فأظن أنه لا يرد على بمنزلة العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر ؛ وإذا كان النبوغ في السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مساقى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرت وذكرت ، وسلامي عليك ورحمة الله

أحمد أمين

- ٢ -

ان ما قررناه آتقا في شأن العلم والتعليم ، ينطبق على أمر التاريخ وتعليم التاريخ ، بطبيعة الحال .

ففي شأن التاريخ أيضاً نستطيع أن نقول : إن الابحاث العلمية التي تتوخى معرفة الحقائق التاريخية شي . ، والشؤون التعليمية التي تتوخى نشر تلك الحقائق شي آخر . ومهما بالغنا في القول بأن التاريخ ، يجب أن يكون الغرض منه معرفة الحقائق معرفة مجردة عن كل غاية ، لا نستطيع أن نقول ذلك في تعليم التاريخ ، بل لا بد لنا من التسليم بأن هذا التعليم يجب أن يوجه نحو غايات تربية واضحة . . على أي حال .

ويجب أن نلاحظ زيادة على ذلك ، أن الغايات التربوية التي يرمى اليها من تعليم التاريخ ، كبيرة وخطيرة جداً ، لأن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات بالتأثيرات العميقة التي تحدثها في الشعور القومي والحس الوطني ، وبالأدوار العامة التي تلعبها في تكوين القومية الوطنية .

فإن شعور الأفراد نحو أمتهم ووطنهم لا يتأثر بمعرفتهم أو عدم معرفتهم للحقائق الطبيعية مثلا ؛ غير أن شعورهم هذا يتأثر تأثراً شديداً من علمهم أو عدم علمهم بالوقائع التاريخية التي تعاقبت على الوطن والأمة في سالف الأزمان .

ويمكننا أن نقول : إن الشعور القومي يستند على الذكريات التاريخية ، أكثر من كل شيء آخر . ونستطيع أن تؤكد أن الأفكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ ، تلعب دوراً هاماً في حياة الأمم ، وتؤثر تأثيراً كبيراً في سير حوادثها .

ولهذا السبب نجد أن الأمم المتقدمة بأجمعها تهتم بالتاريخ اهتماماً عظيماً . فهي لا تكتفي بالتذكير بالماضي بواسطة الدروس والمؤلفات بل تبذل أنواع الجهود لاقامة التماثيل والانصاب ، بقصد تجسيد وتخيل الذكريات ، كما تنتهز جميع الفرص لاقامة الاحتفالات ، لاجاء ذكر بعض الوقائع التاريخية ، بقصد استثارة انتباه الشعب وإيقاد نار الذكريات القومية في قلوب الناس .

كما نشاهد أن الدول المستعمرة ، عند ما تستولي على أمة من الأمم ، تحاول أن تدعم استيلائها العسكري باستيلاء معنوي ، وتعتبر السيطرة على المعلومات التاريخية ، من أهم وسائل هذا الاستيلاء . ولذلك ، حالما تنتهي من الأعمال التي تمحورها الحكومة المحلية وقراها المختلفة ، تأخذ في تصريب سهاها نحو

ويمكننا أن نقول : أن قيمة التعليم تقاس بقيمة الغايات التي تقصد به من جهة ، وبجودة الطرق التي تتبع في خلاله من جهة أخرى ، ولا تغالي اذا قلنا : أن الغايات ، في هذا الشأن تكون أهم من الطرق ، بوجه عام ؛ لأن الطريقة تتبع الغاية وتخضع لمقتضياتها ، بطبيعة الحال .

هذا ، وما تجب ملاحظته في هذا الباب أن تعليم أي علم من العلوم لا يمكن أن يشمل ويستوعب جميع الحقائق المكتشفة والمقررة في ذلك العلم ، حتى في الدراسات العالية . فكل تعليم يضطر - بطبيعة الحال - الى انتخاب بعض الحقائق والاهتمام بها أكثر من غيرها . فنستطيع أن نقول لذلك : أن التعليم يتضمن شيئاً من الانتخاب ؛ فجودة التعليم توقف على حسن الانتخاب ؛ ولا جدال في أن حسن الانتخاب لا يتيسر الا بموازنة الفوائد التي يمكن الحصول عليها من تعليم كل بحث من الابحاث ، من جميع الوجوه العلمية والتربوية . ولا شك في أن هذه الموازنة ، توسع مجال عمل الغايات في التعليم ، توسيعاً كبيراً .

وأما نوع التربية الذي يستهدف والتأثير الذي يتوخى من تعليم كل علم من العلوم ، فيختلف باختلاف العلوم من جهة ، وباختلاف درجات التعليم من جهة أخرى . فالغوائد العملية والاهداف التربوية التي نستهدف في تعليم الرياضيات مثلا تختلف عما يتوخى من تعليم الطبيعيات والاجتماعيات . كما أن الغايات التي تقصد في تعليم هذه العلوم في المدارس الابتدائية ، تختلف عما يقصد منها في تعليمها في المدارس الثانوية والعالية .

ونستطيع أن نقول بوجه عام : أن دور الغايات التربوية في التعليم يتضاءل كلما ارتفعت درجة التعليم ؛ ومع هذا فإن التعليم العالي نفسه لا يتجرد عن الغايات التربوية تماماً ، فإن هذا التعليم أيضاً لا يكتفي بسرد الحقائق وحدها ، بل يستهدف في الوقت نفسه تعويد الطلاب على التعلم من تلقاء أنفسهم ، بمراجعة المصادر وجمع الوثائق وملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث . . . حسب ما تقتضيه طرائق البحث العلمي والدرس الذاتي . .

وأما التعليم العالي الذي لا يقوم بهذه المهمة خير قيام ، فإنه يكون مقصراً في واجباته الأساسية ، مهما توسع في سرد الحقائق وتوغل في شرح الابحاث .

فلا تغالي اذا قلنا : أن التعليم لا يصبح مقصوداً بالذات ، الا في الدراسات العالية الاختصاصية وحدها .

بوضوح أكبر فاذك إلا لأن هؤلاء غيروا نظام حكمهم حديثاً فاضطروا لذلك إلى القيام بتكييف تاريخهم لمقتضيات هذا النظام الجديد بصورة لجائية وعلى رؤوس الأشهاد، في حين أن غيرهم أقدموا على مثل هذا العمل قبلهم، فأوجدوا لأنفسهم تاريخاً مكيفاً بمقتضيات الوطنية، منذ مدة غير يسيرة من الزمن... فيمكننا أن نقول: إن الفرق بين الفريق الأول والفريق الثاني ينحصر في تاريخ علمهم بهذه النزعة، لا في انقيادهم إليها أو انصرافهم عنها.

ومن الغريب أننا نجد بين مفكرى الفريق الثاني من الأمم من يتخذ بشدة الخطط التي يتبعها الفريق الأول في هذا الباب. غير أننا نشبه انتقادهم هذا بعمل بعض الأمم المستعمرة التي تسجن فكرة الاستعمار عند ما تشهد آثارها عند غيرها، مع أنها كانت ولا تزال من آباء الاستعمار وإبطاله، ومع أنها تنعم بخيرات مستعمرات كثيرة ولا تنأى في التوسل بجميع وسائل العنف والشدّة لإدامة سيطرتها عليها.

فيجب علينا ألا نتخذ بمثل هذه الدعايات والانتقادات السياسية وأن نعلم علم اليقين أن تكييف دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية من الخطط التي تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء، ومن الخطط التي تتحتم على جميع الأمم المستضعفة بوجه خاص...

هذا ويجب أن نلاحظ في الوقت نفسه أن التكييف، الذي نفير إليه لا يستلزم الاختلاق، لأن الانتخاب والإبراز، وحدهما يكفلان التكييف، ويكفيان للتوجيه، بوجه عام وذلك لأن الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة طويلة لا مجال لتحييدها، بل شبكة معقدة لا حد لتعقيدها، فعدم ذكر الوقائع بأجمعها - قصداً أو اضطراراً - واختيار بعضها أو تفصيله أو اختصاره - كل ذلك مما يغير منظر الوقائع وتأثيرها النفسى تغييراً كبيراً، كما تتغير الألوان حسب مشيئة المصورين، تبعاً لتغير أنواع الأصباغ التي تخرج بعضها ببعض من جهة، ولتغير نسب هذا المزج من جهة أخرى.

ولذلك نستطيع أن نقول: إن عملية الاختيار والإبراز، إذا كانت من الأمور المهمة في جميع فروع التعليم، فهي في منتهى الأهمية في تعليم التاريخ.

لنذكر مثلاً بسيطاً لتوضيح تأثير عملية الانتخاب والإبراز في مثل هذه الأمور لنفرض أننا نود أن نبحث عن علاقة فرنسا

«التاريخ القومي»، وتبذل كل ما لديها من الوسائل لاختفات صوت ذلك التاريخ، وتستعمل كل ما لديها من الحيل لإبعاد ذكر الأمة عن تاريخها الخاص.

كما نجد أن الشعور القومي عند الأمم المحكومة يأخذ في الخمود والتضاؤل عند ما يسحب النسيان ذيله على «التاريخ القومي» ولا سيما عند ما تنصرف الأمة عن تاريخها الخاص إلى «التاريخ» الذي تلققه وتعرضه عليها السلطة الحاكمة... حسب مقتضيات سياسة السيطرة والاستعمار.

وأما عودة الشعور القومي إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا بعودة الذكريات التاريخية؛ ولا تغال إذا قلنا: إن حركات الاستيقاظ والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد... لا تبدأ إلا بتذكير الماضي واستلهم التاريخ، هذه حقيقة ناصعة تتجلى من بين صفحات التاريخ بوضوح تام.

فإن «حب الاستقلال» يغذى بذكرات الاستقلال المفقود؛ والتوقن إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتجسر على السيادة الماضية والمجد السالف؛ والإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضياها الباهر، والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضيئة... هذه كلها حقائق ثابتة، تشهد بها جميع التواريخ، من تاريخ استقلال اليونان إلى تاريخ اتحاد الألمان، ومن تاريخ ثورة الصرب إلى تاريخ وثبة الأتراك...

ولذلك كله نجد أن جميع علماء الترية يتفقون في القول بأن دروس التاريخ من أهم وسائل الترية الوطنية والقومية.

فهل يجوز - وهذه هي الحال - للمعلمين والمؤلفين أن يتعمدوا ملاحظة تأثير المعلومات التاريخية في هذا المضمار، وألا يستفيدوا من تأثيرها هذا في تقوية الروح القومي وتوجيه الشعور الوطني نحو الأهداف التي يتطلبها مجد الأمة ونهوضها؟

— ٣ —

يظن البعض أن استخدام دروس التاريخ كواسطة للتربية الوطنية والقومية وتكييف كتب التاريخ لمقتضيات هذه الترية، هما من الخطط والنزعات الخاصة بالأمم التي تدار بالديكتاتوريات الوطنية؛ والواقع أنه لا فرق بين هذه الأمم وغيرها في ذلك. ونحن لا نعلم بوجود أمة بين الأمم الراقية تجردت عن هذه النزعة فأهملت الاستفادة من دروس التاريخ في هذا المضمار. وإذا تجلّت آثار هذه النزعة الآن عند فريق من الأمم

وكتبهم من النزعات القومية والوطنية . أو يتركوا الاستفادة من التاريخ في التربية القومية والوطنية
وعلى كل حال نحن نستطيع أن نؤكد أن « تعليم التاريخ ، يستهدف التربية الوطنية والقومية قبل كل شيء ، عند جميع الأمم بدون استثناء .

— ٤ —

بعد هذه التفصيلات يجدر بنا أن نعود إلى أنفسنا ونسأل عما يترتب علينا عمله في دروس التاريخ ، نحن الناطقين بالصاد . نحن نعتقد بأن حاجتنا إلى الاستفادة من التاريخ في التربية الوطنية والقومية ، تفوق حاجة جميع الأمم على الإطلاق . لأن حالة العالم العربي الآن تزيد في احتياجه إلى الاستفادة من دروس التاريخ وكتب التاريخ في هذا المضمار زيادة هائلة .

هذا ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن موضوع تأليف وتدريس التاريخ — في العالم العربي — يظل بعيداً عن مقتضيات البحث العلمي والتربية الوطنية في وقت واحد .

وذلك لأن المؤلفات التاريخية العربية تستند إلى نوعين من المصادر : غربية وشرقية ؛ والمصادر الغربية لم تتخلص تماماً من تأثير « النظرات الأوربية » التي نشأت على معاداة الشرق واستضعاف العرب حتى الآن . . . وأما المصادر الشرقية فقد ظلت بعيدة عن التطورات العلمية والنزعات التربوية في وقت واحد . . .

فيجب علينا في مرحلة النهضة التي وصلنا إليها أن نعيد النظر في أبحاث التاريخ بروح على وشعور قومي ؛ وأن نوجد لأنفسنا — على هذا الأساس — مؤلفات تاريخية تجمع بين مقتضيات البحث العلمي ومطالب التربية الوطنية في وقت واحد . . .

أبرهملدود

« بغداد »

بوحدة إيطاليا : فإذا استعرضنا الحوادث التي تعاقبت في إيطاليا منذ حروب نابليون إلى حرب السبعين ، ولاحظنا علاقة هذه الحوادث بسياسة فرنسا وأعمالها ، وجدنا أن هذه السياسة كانت مساعدة لوحدة إيطاليا في بعض الأحوال والأدوار . ومعركة لها في أحوال وأدوار أخرى ، فإذا ذكرنا النوع الأول من الوقائع دون أن نبحث عن النوع الثاني منها ، أو إذا سردنا النوع الثاني من الوقائع دون أن نتطرق إلى النوع الأول منها . سنوصل قراءنا وطلابنا إلى أحكام متخالفة ومتعكسة في هذا الباب . وهذا الاختلاف سيظهر حتى عند عدم إهمال ذكر نوع من نوعي هذه الوقائع إهمالاً تاماً ، بل توسع في شرح أحد النوعين ونكتفي بإشارة مختصرة في النوع الآخر .

وهذا ما يحدث فعلاً في تدوين وتدریس هذه الوقائع التاريخية في مدارس كل واحدة من هاتين الدولتين . فإن الفرنسيين يوجهون الأنظار إلى الوقائع التي كانت من نوع المساعدة للوحدة الإيطالية ، ، ويرزون هذه الوقائع أكثر من غيرها . . . في حين أن الإيطاليين — بعكس ذلك — يوجهون الأنظار إلى الوقائع التي كانت من النوع الثاني ، ويتوسعون فيها أكثر من غيرها ولهذا السبب تجد أن رأي الإيطاليين في هذه القضية يختلف عن رأي الفرنسيين اختلافاً بيناً في معظم الأحوال .

وقد لاحظ الكثيرون من رجال الفكر والسياسة ، التأثير الشديد الذي يتأتى من دروس التاريخ في إدامة الضغائن وإثارة الحروب بين الأمم ، فآخذوا يفكرون فيما يجب عمله في هذا الباب ؛ وهذا ما حمل عصبه الأمم على الاهتمام بالأمم اهتماماً خاصاً ، وتكوين فرع مختص بشئون تعليم التاريخ بين جوانب معهد التعاون الفكري الأممي . . . كما حمل عدداً كبيراً من المربين والمؤرخين على عقد مؤتمرات أممية عديدة للدولة في القضايا المتعلقة بدروس التاريخ . . .

وإذا تتبعنا مناهج هذه المؤتمرات ونشأتها ، ولاحظنا أعمالها ومقرراتها ، نجد أنها لم تعارض قط في « استخدام التاريخ كواسطة للتربية الوطنية » وكل ما طلبته من المعلمين والمؤلفين في هذا الباب ، انحصر في التماس السعي إلى تخلص دروس التاريخ وكتب التاريخ من الأبحاث والاتجاهات التي تثير الضغائن وتحول دون التفاهم والتقارب بين الأمم .

إنها دعت المعلمين والمؤلفين إلى توجيه جهودهم وأعمالهم إلى هذا الاتجاه على الدوام ، دون أن تطلب إليهم أن يجرّدوا دروسهم

أطلب مؤلفات
الاستاذ الأستاذ شبيب
وكتابه
الاستاذ الصريح
من : مكتبة الرشيد ، شارع الفلكي (بغداد)
من : المكتبات العربية المشرفة .